خواطر وصور

بعض الناس

للأستاذ محمد عبد الواحد خلاف

عرفت فيمن عرفت من الناس رجلا اجتمع له كل ما يشتهى من جمال فى المظهر . كان مديد القامة فى غير شذوذ ، مكتنز العضلات فى غير ترهل . حسن قسمات الوجه فى غير تخنث . اشرب لونه حمرة تنطق بما حباه الله من عافية فى بدنه . محمود الملبس لا تفصه فيه أناقة ولا حسن انسجام . وكان ينشئ ناديا اختلف اليه جماعة من الاخوان فاستشعرت له أول الأمر هيبة وتوهمت فيه خطرا . وكان أحد الرفاق يتحدث فى أمر شديد الاتصال بذاته ، فرأيت لهذا الرجل نظرة ساخرة . أدركت معنى أنه يعلم عن هذا الحديث ما لا يعلم قائله ، ولم يطل بى الانتظار حتى رأيته قد استولى على الحديث وأخذ يذكر عن نفسه وتجاربه المتصلة به كثيرا ، أو تشعب الحديث ، وأثار الاستطراد ذكر مسائل مختلفة ، وكان هو فارس كل ميدان والحجة فى كل موضوع ، وكان اذا اشتد الجدل علا صوته حتى غلب كل صوت ، واذا أعوزه فى دعوى أن يقيم الدليل ، أقحم مناظريه بالضجيج والتهويل وتكرر التفاتى به حتى هان على أمره ، وصرت لا أحفل لقوله يقوله . ولكنى كنت أجد فى دعاواه العريضة شيئا من الفكاهة يروح عن النفس بعض ما تلقاه من جد الحياة .

وقرأ خبيث من الرفاق فى احدى الصحف خبر اغتصاب الحمالين لخلاف بينهم وبين رؤسائهم ، فبيت فى نفسه أمرا يهتك به ستر هذا المدعى . وأقبل صاحبنا يتهادى فى مشية يطيش وقورة وقد تدلى من بين شفتيه سيكار فاخر . وأشرق وجهه بتلك الابتسامة الساخرة التى توحى الى الراقى هوان الناس عليه ، وعلمه من حقائق الأمور ما لا يعلمون . فتلقاه المداعب الخبيث بتهليل المعجب الذى وقف على ما أخفاه من فعال ، وبدا عليه ما يشبه الخجل والحياء لافتضاح مكرمة يأبى عليه تواضعه ان تنشر وتذاع . وقال له الصديق المداعب : « لله أنت من بطل ! لقد لمست فى الأمر أصبعك ، وشممت به ريحك ، وقلت منه قرأت الخبر انها لاشك احدى أياديك فى نصرة الضعفاء .

ولكن نبئنى كيف وفقت فى جمع كلمة أولئك الحمالين مع انقطاع كل صلة بينك وبينهم ، وكيف تم لك تدبير أمرهم ؟ »

وأشفقت من وقع تلك السخرية اللاذعة المكشوفة على نفس صاحبنا ، ووجدت فيها قسوة شديدة على هذا الغر . ولكنى عجبت حين وجدته يهز رأسه فى أناة هزة الواثق ، ويذكر أنها بداية حملات يقوم بها فى رد حقوق المهضومين ، وأن هذا شىء لا يستحق الذكر الى جانب ما ستظهره الأيام من جهوده العظيمة فى هذا السبيل .

وانطلقت من الأفواه ضحكات طويلة عدتها سخرية وعدها هو طرب أعجاب وتقدير ، وبدأت بعد هذا أرثى للرجل وأشفق عليه مما سيحيق به من السخرية والأزدراء فى كل مجتمع يغشاه ، حتى كانت بعض الحركات العامة فوجدت الرجل يتصدر مجالسها مسموع الكلمة غالى المنزلة !

أدركت عند ذلك أن أول الناس فى هذا البلد بالرثاء هم ذوو الفضل والحياء .

اقيلوا عثرات الناس :

نشأت نشأة محافظة جعلتنى أغلو فى استنكار زلات الشباب ، واشتد فى النقمة على كل عاثر . ولا يتسع صدرى لتلمس عذر لخاطىء . وكنت أجافى من اعرف عنهم ذلك واشتط فى الحكم عليهم ، فلا أرجو منهم خيرا أبدا .

وكان لى صديق ألف الله قلبنا يرتاح من الود الصادق أنزله من نفسى أكرم منزل ، وباعدتنا طلب الرزق حينا ، فلما التقينا بعد طول غياب وجدت على وجهه غمامة من الاكتئاب دلتنى على أنه يعانى بين جنبيه هما مبرحا ثقل عليه حمله . وكان كلما هم أن يفضى الى برجيعه ساوره شىء من الخوف فطواها فى صدره . ومازلت أترفق به حتى قص على قصته ، وعلمت أنه فى احدى ثورات العواطف جمحت به نفسه ، وأفلت منه قيادها فزلت قدمه . وأتى ما يأتيه كثير من الناس . ولم يجد فيما روى به حسه من متع غناء عما فقده من رضى نفسه وطمأنينة وجدانه ، فهو لهذا بائس حزين .

(البقية على صفحة ٤٢)